"إِمِتْ" الربّ (حقّ الربّ) في المزامير

الأرشمندريت جاك خليل
دكتور في علم الكتاب المقدّس

مقدّمة

אֱמֶת ("إِمِتْ") هي مفردة مميّزة من لغة الكتاب المقدّس، نصادفها كثيرًا في نصّ العهد القديم العبريّ. وسفر المزامير، تحديدًا، غنيّ بالجمل التي تُستعمل فيها كلمة אֱמֶת ("إِمِتْ") ، وعلى الأخصّ في الحديث عن الله. فمع أنّ هذه المفردة تُستعمل أحيانًا في الحديث عن البشر، تبقى أهمّيّتها في استعمالاتها بالمعنى الإلهيّ. ولا شكّ بأنّ أهمّيّتها تعدّت نطاق العهد القديم، لكي تشمل أسفار العهد الجديد المدوّنة في اليونانيّة، والمتأثّرة كثيرًا بترجمات العهد القديم إلى اليونانيّة، ولا سيّما الترجمة السبعينيّة. وتشمل كذلك الترانيم المسيحيّة من مختلف التقاليد، القديمة والحديثة منها، والتي تسبّح حقّ الله وأمانته ورحمته وبرّه. لذلك، فإنّ التعمّق في مدلولات هذه المفردة الكتابيّة يزيد القارئ العربيّ، المتخصّص في اللاهوت والمؤمن العاديّ على حد سواء، فهمًا للنصوص الكتابيّة والترانيم المسيحيّة الغنيّة.

يواجه المترجمون والمفسّرون صعوبةً في تحديد المعنى الدقيق للشكل الإسميّ אֱמֶת ("إِمِتْ") من السياق المباشر الذي يرد فيه، فتختلف الآراء وتتباين الاستنتاجات التي تؤدّي أقلّه إلى تحجيم القيمة اللاهوتيّة التي يحملها النصّ. لذلك، تحاول هذه الدراسة إبراز المدلولات العميقة والمتنوّعة التي تلتصق بهذه المفردة الكتابيّة، فتنتطلق من توضيح الاشتقاق اللغويّ لهذا الشكل الإسميّ، كي تبحث في سياق النصوص عن المعنى المقصود، أكان في الحديث عن אֱמֶת ("إِمِتْ") البشر، أم אֱמֶת ("إِمِتْ") الله بنوع خاص. وفي الحالة الأخيرة،

يقدّم سفر المزامير المرجع الأساسيّ لدراسة هذه المفردة. وسيتبيّن أيضًا من خلال الدراسة سبب وفرة ورود هذه العبارة في سفر المزامير.

تتوخّى هذه الدراسة مساعدة القارئ العربيّ على فهم أدقّ للآيات الكتابيّة –من العهدَين القديم والجديد– التي تتحدّث عن حقّ الله وأمانته بالاعتراف والتسبيح.

يشتقّ الشكل الإسميّ אֱמֶת ("إِمِتْ") من جذر الفعل אמן، الذي توجد أقدم أمثلة معروفة منه في اللغة العبريّة. انتقل الشكل "هِفْعِيل"، האמין، من هذا الجذر إلى اللغتين السريانيّة والعربيّة، وربما إلى الأثيوبيّة أيضًا، بينما عرفت الآراميّة السوريّة هذا الجذر باستقلال عن العبريّة؛ ففي الآراميّة السوريّة يدلّ الجذر على استمرارٍ وديمومةٍ زمنيّة. وعلى ضوء المعلومات المتوفّرة عن هذا الجذر العبريّ، يتعزّز الاعتقاد بعدم إمكانيّة الاعتماد على استعماله المتأخّر في لغات أخرى، بهدف استخلاص استنتاجات عن معناه الأصليّ. إن كان من الممكن اقتفاء أثر المعنى الأصليّ وفهم الكلمات المشتقّة منه، فالسبيل الوحيد هو اللغة العبريّة، لا السوريّة ولا العربيّة. أضف إلى ذلك، أنّه لا يصير الاستدلال على معنى كلمة ما من خلال دراسة أصلها اللغويّ، بل فقط من خلال دراسة معمّقة لأمثلة استعمالها في اللغة.

אֱמֶת

في العهد القديم، يكثر استعمال الشكل الإسميّ אֱמֶת ("إِمِتْ") أكثر من أيّ شكل إسميّ آخر مشتقّ من الجذر אמן. ويتأكّد اشتقاق אֱמֶת ("إِمِتْ") من هذا الجذر، عندما يُضاف الضمير المتّصل إلى آخر الاسم، مثال: אמתו، لأنّ تحليل شكل هذه اللفظة يقود إلى اعتبار شكلها الأوّلي אמנתו. ويبقى تفسير التحريك المَسّوريتيّ لكلمة אֱמֶת ("إِمِتْ") مدار جدل، ممّا لا يفسح المجال لإبداء رأي قاطع بشأن شكل الكلمة.

يرد هذا الشكل الإسميّ ١٢٦ مرّة في العهد القديم، أو بالأحرى ١٢١ مرّة إذا ما أخذنا الثنائيّات بعين الاعتبار. نجده ٣٧ مرّة في المزامير، ١٢ مرّة في سفر أشعيا، ١١ مرّة في سفر إرميا، ١١ مرّة في الأمثال، ويرد في سواها من الكتب ما بين مرّة واحدة و٦ مرّات في كلّ منها. ويغيب تمامًا عن سفر اللاويّين وسفر العدد، وأيضًا عن سفر أيّوب. واستعمال אֱמֶת ("إِمِتْ") في الحديث عن البشر يكثر في سفر الأمثال وفي بعض المقاطع السرديّة، بينما يظهر الحديث عن אֱמֶת ("إِمِتْ") الله في سفر المزامير على نحو خاصّ.

أمّا بالنسبة إلى معنى אֱמֶת ("إِمِتْ")، فالأكيد في هذا المجال أنّها لم تُفهم دائمًا بمدلول واحد. لقد ساهمت كلتا الترجمتين السبعينيّة (التي تنقلها في معظم الأحيان بكلمات ἀληθινός وἀλήθεια) والآراميّة (التي تنقلها بكلمة קוּשְׁטָא) مساهمةً كبيرة في اعتماد الترجمة المتعارف عليها "حقّ"، "حقيقة". واقع الحال هو أنّ مسألة ترجمة هذه المفردة الكتابيّة تبقى صعبة جدًّا، والقرار يستند على تحزّرات تهدف إلى إبراز معنى واضح ومتماسك من سياق الجملة.

١ – استعمالها بين البشر

أ. عندما تستعمل אֱמֶת ("إِمِتْ") كصفة لأمر ما أو لشيء ما، فهي تصف ما هو أكيد، وبالإمكان الاعتماد عليه، وسيُظهر المستقبل صحّته وحقيقته (رج يش ٢: ١٢؛ إر ٢: ٢١؛ أم ١١: ١٨).

وتخدم אֱמֶת ("إِمِتْ") الهدف ذاته عندما تظهر إلى جانب חֶסֶד ("حِسِدْ"، أي "نعمة"، "عمل خيّر"، "أمانة")، أو שָׁלוֹם ("سلام")؛ فهي تستعمل للدلالة على المعروف والعمل الخيّر، الذي يستطيع المرء الاعتماد عليه (تك ٢٤: ٤٩؛ ٤٧: ٢٩)، أو يعد بالقيام به (يش ٢: ١٤)، أو يتمنّاه للآخر (٢ صم ١٥: ٢٠)، أو يثق بمنفعته (أم ١٤: ٢٢)، والذي يقوى على التكفير عن الإثم (أم ١٦: ٦). وهي تستعمل كذلك دعمًا لإعلان السلام المستقبليّ الأكيد (إس ٩:

٣٠؛ رج أيضًا إر ٣٣: ٦ حيث تكون موضوع وعد إلهيّ، كما أيضًا إر ١٤: ١٣ حيث تأتي كوعد على لسان الأنبياء الكذبة)، وموازاةً للسلام المنشود (أش ٣٩: ٨). بناءً على هذا، نستطيع القول إنّ ما يُقال عنه إنّه אֱמֶת (إِمِتْ)، لا يكون موجودًا فقط في الوقت الحاضر، بل وأكثر من ذلك، ستعلن حقيقته في المستقبل.

ب. غالبًا ما ترتبط אֱמֶת (إِمِتْ) بكلمة דָּבָר ("دَبَرْ"، "كلمة")، لتصف الكلمة، أو الكلام/الخبر، بأنّها "صحيحة وحقيقيّة"؛ وهي تثبت صراحةً صحّة الأمرّ דָּבָר ("دَبَرْ") بعد التأكّد منه، أو تستعمل في السؤال للتأكّد من صحّة وحقيقة أمرٍ ما (قض ٩: ١٥). كما وتستعمل أيضًا في تشريعات التثنية، في سؤال شرطيّ تثبّتًا من صحّة أمرٍ ما، وتمهيدًا للقضاء فيه إذا ما حصل (تث ١٣: [١٤] ١٥؛ ١٧: ٤؛ ٢٢: ٢٠).

ج. نادرًا ما تطلق אֱמֶת ("إِمِتْ") كصفة لشخص ما صراحةً؛ المثل الوحيد نجده في نح ٧: ٢، حيث نقرأ عن أحدهم أنّه "كان رجلاً أمينًا"، (alhqhj بحسب الترجمة السبعينيّة). وكانت نصيحة يثرو لموسى أن "ينْظر من جميع الشَّعب ذوي قدرةٍ خائفين الله، أمناء مبغضين الرّشوة..." (dikaioi، بحسب السبعينيّة). على موسى أن ينظر في القلب لكي يجد مثل هؤلاء الرجال، لأنّه من الصعب أن يجدهم المرء؛ أمّا يوسف فقد أراد أن يمتحن إخوته ويفحص صحّة أقوالهم، لكي يعرف إن كانوا يتكلّمون بالصدق (אֱמֶת ("إِمِتْ").

د. كما نجد في العهد القديم عددًا متساويًا من الحثّ على אֱמֶת (إِمِتْ) والتحسّر على غيابها. يشجّع العهد القديم الناس على النطق بالـאֱמֶת ("إِمِتْ")، أي على قول ما يستطيع الآخرون الاعتماد عليه: "ليكلّم كلّ إنسان قريبه بالحقّ" (زك ٨: ١٦). ويجب أن يتزيّن التعليم بأقوال אֱמֶת ("إِمِتْ") (أم ٢٢: ٢١). وأسمى مديح للمعلّم هو نسبة كلمات אֱמֶת ("إِمِتْ") إليه (جا ١٢: ١٠).

كما يتوجّب إجراء العدل بالحقّ: "أقضوا قضاء الحقّ". وقضاء الحقّ هو إجراء العدل والبرّ. إجراء العدل الحقّ هو التصرّف المستقيم البار، أكان ذلك في علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، أم مع الله العليّ. وتجدر المقارنة هنا بين حز ١٨: ٥ و١٨: ٨–٩، حيث قيل عن الرجل البارّ (צַדִּיק) إنّه مَن يفعل צְדָקָה (١٨: ٥)، ومن يفعل אֱמֶת ("إِمِتْ"، ١٨: ٨)، مما يدلّ على موازاة بين العبارتين، لا يلبث أن يتأكّد في آ ٩ عندما ترد كِلتَا العبارتين جنبًا إلى جنب بعد الفعل عينه (עָשָׂה)، فيصحّ اعتبار אֱמֶת ("إِمِتْ") بمثابة بدل لِـצְדָקָה. وثمّة أمثلة كثيرة من هذا النوع في العهد القديم والجديد تؤكّد الموازاة بين هاتين العبارتين (أنظر أش ٥٩: ١٤–١٥).

وعلى الملك تحديدًا أن يفعل אֱמֶת ("إِمِتْ")، التي هي جوهر العدل والبرّ وركيزتهما. عندما يحكم الملك للفقير بالحقّ، يثبت عرشه إلى الأبد (أم ٢٩: ١٤). חֶסֶד وאֱמֶת يحفظان الملك (أم ٢٠: ٢٨؛ رج أيضًا مز ٦١: ٨[٧] ويسندان عرشه. وسنرى لاحقًا الفكرة ذاتها في سياق الحديث عن الله في مز ٨٩: ١٥[١٤].

٢– אֱמֶת ("إِمِتْ") الله

يتحدّث العهد القديم عن אֱמֶת ("إِمِتْ") الله، التي هي من خصائص طبيعته؛ فالكتاب يشدّد على أنّ الله هو אֱמֶת ("إِمِتْ")، "يهوه إله אֱמֶת ("إِمِتْ")" في مز ٣١: ٦[٥])؛ وهذه الحقيقة تتجلّى في علاقته مع البشر، ولا سيّما المؤمنين به والمتّكلين عليه. لذا تكثر الاستغاثة بـאֱמֶת ("إِمِتْ") الله في صلوات العهد القديم وتسابيحه، ممّا يفسّر كثرة ورود هذه العبارة في سفر المزامير. في الواقع، يقدّم سفر المزامير المادة الأساسيّة لدراسة אֱמֶת ("إِمِتْ") الله في الكتاب المقدّس.

إلى جانب חֶסֶד، צֶדֶק، ومִשְׁפָּט، تُعتَبَر אֱמֶת ("إِمِتْ") أساسَ عرشِ الله ومبدأَ علاقته بالبشر، وبالخليقة كلّها عامّةً (مز ٨٩: ١٥[١٤]). إنّ الربّ غنيّ

بِـחֶסֶד אֱמֶת (إِمِتْ) (خر ٣٤: ٦؛ مز ٨٦: ١٥). وكثيرًا ما تتّصل אֱמֶת (إِمِتْ) الله بِـחֶסֶד الله، حيث تَردانِ في موازاةٍ بين أجزاء الآيات، وتقدّمان صفتين إلهيَّتَين مستقلّتَين. بالفعل، إنّ אֱמֶת ("إِمِتْ") هي صفة إلهيّة بامتياز.

إنّ الربّ الإله هو إله אֱמֶת ("إِمِتْ")، إله بارّ وأمين في كلّ ما يقوله أو يفعله، لذا يلتجئ الإنسان المؤمن إلى كنفه، محتميًا بأمانته. هذا ما يقوله مز ٩١: ٤: "ترسٌ ومجنٌّ حقّه" (بحسب النصّ العبريّ)، أو "كسلاح يحوط بك حقّه" (بحسب الترجمة السبعينيّة). وكذلك يقول مز ٤٠: ١٢[١١]: "رحمتك وحقّك يحفظاني دائمًا". وفي وقت الشدّة يصلّي المؤمن لكي يهديه الربّ بنوره وحقّه إلى سبيل النجاة (مز ٤٣: ٣)، لأنّ אֱמֶת ("إِمِتْ") الربّ تحفظ الإنسان وتنجّيه من ضيقاته، وتهديه كالنور إلى سبل النجاة.

يضع الإنسان رجاءه على الربّ بثقة، ويطلب منه وحده المعونة، لأنّه هو صانع السماوات والأرض والبحر وكلّ ما فيها. هو الإله الذي يعتني بجبلة يديه كلّها، ويحفظ אֱמֶת ("إِمِتْ") إلى الدهر (مز ١٤٦: ٦)، אֱמֶת ("إِمِتْ") خلاصه (مز ٦٩: ١٤[١٣]). هذه هي مدعاة ثقة الإنسان به، وبهذه الثقة بخلاص الربّ، وبرجاء النجاة، ترتفع صلاة القلب إلى الله (رج الآية السابقة، وأيضًا مز ٥٧: ٤[٣]).

ثم يوجّه الإنسان التسبيح والحمد لله، لأجل אֱמֶת ("إِمِتْ") له ثابتة في كلامه وأفعاله المخلِّصة. هذه هي خبرة الإنسان المتّكل على الربّ، والتي تتجلّى في سياق مز ٧١. نقرأ في هذا المزمور صلاةً وتوسّلاً من المؤمن إلى الله بإيمانٍ ثابت ورجاء اليقين (آ ١–١٤)، واعترافًا بكلّ العظائم التي صنعها الله، وذكرًا لِبرِّه وعدله (آ ١٥–٢١)، حتّى يبلغ في النهاية مقام التسبيح والترنيم لله لأجل حقّه אֱמֶת ("إِمِتْ"، آ ٢٢–٢٤): "وأنا أيضًا أحمدك برباب، لحقّك يا إلهي". ونستدلّ على مركزيّة موضوع אֱמֶת ("إِمِتْ") الله في التسابيح التي تُقدَّم له من خلال تذكير المؤمن لله بأنّ الأموات لا يسبّحونه لأجل حقّه: "ما الفائدة من دمي إذا نزلت إلى الحفرة؟ هل يحمدك التراب أم يخبر بحقّك؟" (مز ٣٠: ١٠؛ رج

أيضًا مز ٨٨: ١٢[١١])؛ وأشعيا النبيّ يقول: "لأنّ الهاويّة لا تحمدك، الموت لا يسبّحك، لا يرجو الهابطون إلى الجبّ أمانتك (אֲמִתְּךָ)" (أش ٣٨: ١٨).

إنّ صورة الأموات الذين لا يسبّحون حقّ الله في عالم المزامير، يقود إلى تقويم أعمق لأهمّيّة الاعتراف والتسبيح لأجل אֱמֶת ("إِمِتْ") وחֶסֶד الله، كما تنشد مزامير عدّة: "لم أكتم عدلك في وسط قلبي، تكلّمت بأمانتك وخلاصك، لم أخف رحمتك وحقّك عن الجماعة العظيمة" (مز ٤٠: ١١[١٠])، "لأنّ رحمتك قد عظمت إلى السماوات، وإلى الغمام حقّك" (مز ٥٧: ١١[١٠]؛ أنظر أيضًا مز ١١٧: ٢؛ ١٠٨: ٥؛ ١١٥: ١؛ ١٣٨: ٢). تستحيل حياة الإنسان موتًا، وقلبه قبرًا، عندما لا يخبر بحقّ الله ولا يرجو أمانته.

وأيضًا لأنّ الربّ إيل אֱמֶת ("إِمِتْ")، لا تستقيم ولا تتبارك مسيرة الإنسان إليه ما لم يسلك أمامه بـِאֱמֶת ("إِمِتْ") . لا أحد ينزل في مسكن الربّ أو يسكن في جبل قدسه سوى "السالك بالكمال، والعامل البرّ، والمتكلّم بـ"الحقّ (אֱמֶת ("إِمِتْ") في قلبه" (مز ١٥: ٢). لأنّ الربّ يحبّ الحقّ (مز ٥١: ٨).

إنّ هذه الصفة الإلهيّة تميّز كلمة الله بشكل خاصّ. كلام الربّ دائمًا אֱמֶת ("إِمِتْ")، ويصحّ الاعتماد عليه. بهذا الشأن نقرأ في مز ١٣٢: ١١: "أقسم الربّ لداود بالحقّ لا يرجع عنه". وعندما تكون الوصايا الإلهيّة، على الأخصّ، هي المقصودة في الحديث عن أقوال الله، فحينها يتغنّى كاتب المزامير باستقامة هذه الوصايا وحقّها لأنّها אֱמֶת ("إِمِتْ"؛ مز ١١٩: ١٦٠؛ أنظر ١١٩: ١٤٢، ١٥١؛ رج مز ١٩: ١٠[٩])[1]. في هذا الإطار تكون אֱמֶת ("إِمِتْ") مرادفة للصفات الآتية: "عادل"، "مستقيم"، "بارّ". في الواقع، يتجلّى في المزامير الإيمان بصلاح الوصايا الإلهيّة وعدلها: "أعمال يديه حقّ وعدل، كلّ وصاياه أمينة" (مز ١١١: ٧). وفي الجزء الأوّل من الآية الأخيرة، ليس المقصود القول إنّ الحقّ والعدل هما من صنع يديه، بل إنّ وصاياه قد أُعِدَّت بالحقّ والعدل (رج مز ١١١: ٨).

(١) يبيّن نح ٩: ١٣ كيف تكون صفةً لناموس الربّ ووصاياه.

وحين يطلب المؤمن من الربّ أن يعلّمه ويدرّبه على السلوك بحسب حقّه، إنّما يطلب منه أن يتعلّم حفظ وصاياه وإتمام مشيئته: "إجعلني أسلك في حقّك وعلّمني" (مز ٢٥: ٥؛ ٨٦: ١١؛ رج مز ٢٦: ٣)، لأنّ "كلّ سبل الربّ رحمةٌ وحقّ لحافظي عهده وشهاداته" (مز ٢٥: ١٠).

وتصف אֱמֶת ("إِمِتْ") أيضًا أحكام الله وقضاءه. في معظم الحالات من هذا النوع في العهد القديم، تترجم السبعينيّة كلمة אֱמֶת ("إِمِتْ") بالصفات alhqinoj وalhqhj، والمعنى المقصود بها هو أنّ قضاء الله عادل وجدير بالثقة، كما يقول مز ١٠:١٨: "خوف الربّ نقيّ ثابت إلى الأبد، أحكام الربّ (משפטי־יהוה) אֱמֶת (إِمِتْ) بارّة كلّها"// "كلام الرب طاهر ثابت إلى الأبد، وأحكامه حق وصدق وحدها" (الترجمة المشتركة).

كلمة أخيرة

"إِمِتْ الله" هي مثله، ليست ترجمتها إلى لغات غير العبريّة هي الصعبة فقط، بل وتفسيرها أيضًا بحسب سياقها في الآيات العبريّة. إنّها من خصائص الله، من صفات طبيعته الإلهيّة غير المخلوقة، والتي يعجز الكلام البشريّ، كما وتعجز أيّ لغة من العالم المخلوق، عن أن تسبر غورها. إنّها تبقى سرًّا، لا تُدرِك منها سوى فعلِها الخلاصيّ. ولا يُدرِك فعلها سوى الذين يحبّونها من كلّ قلوبهم، الذين يسعون وراءها، ويستجدونها من الينبوع الذي منه تفيض. متى أدركتَ عملها، تكتفي بالحديث عنه وبتسبيحها، لأنّه لا كلام آخر يفيها وصفًا سوى التسبيح.